



صاحب الجمهرة أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد، يتصل نسبه الى يشجب بن يعرب بن قحطان، الأزدي- أزد عمان - البصري اللغوي الأديب القصصي الشاعر.

ولد بالبصرة في سكة صالح سنة ثلاث وعشرين ومائتين، في خلافة المعتصم العباسي، وأخذ يتردد طوال نشأته بين مسقط رأسه البصرة وبين موطنه الأصلي، موطن آبائه وأجداده عُمان.

وكان أبوه من الرؤساء وذوي اليسار، وكان عمه الحسين بن دريد وجده دريد من العلماء، وقد روى ابن دريد كثيرا من الأخبار والأحاديث عن عمه الحسين الذي كان يرويها عن أبيه دريد[1].

وقد فاخر ابن دريد بنسبه في بضعة ابيات من ديوانه يقول فيها:

إن بيتي في ذُرا قحـ ـطان لَلْبيتُ المنيفُ
ولـي الجمجمـة الـ ـعلياءُ والعزُّ الكثيفُ
ولـي التَّـالـدُ مِلْ . . . . حَمْدِ قديماً والطريفُ[2]

وقد نشأ ابن دريد في كنف عمه الحسين الذي كان يرعاه ويعنى بتربيته وتعليمه على أيدي كبار علماء عصره كأبي عثمان الأشنانداني، وأبي حاتم السجستاني، وأبي الفضل الرياشي، وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، والتّوزي والزيادي والكلابي والعكلي وغيرهم كثير يرد ذكرهم فيما يرويه من لغة وشعر وأخبار.

يروي هو موقفان من مواقف حياته التعليمية، يدلنا على مدى اهتمام عمه بتربيته وتعليمه، ومدى اهتمامه هو وذكائه وقوة ذاكرته فيقول:

كان أبو عثمان الأشنانداني معلمي، وكان عمي الحسين بن دريد يتولى تربيتي، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان ليأكل معه

---

(١) باختصار عن إنباه الرواة جـ ٣ ص ٩٢، ومعجم الأدباء جـ ١٨ ص ١٢٧. وبغية الوعاة ص ٣٠ ومقدمة ديوان ابن دريد ص ٣.

(٢) ديوان ابن دريد ص ٨٢: ملحمد = من الحمد.



فدخل عمي يوماً وأبو عثمان يروِّيني قصيدة الحارث بن حلزة التي مطلعها:

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أسماءُ . . .

فقال لي عمي: إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا. ثم دعا المعلم ليأكل معه، فدخل إليه واكلا وتحدثا بعد الأكل ساعة. فإلى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحارث بن حلزة بأسره. فخرج المعلم من عند عمي فعرفته ذلك فاستعظمه وأخذ يسمعه مني فوجدني قد حفظته، فدخل الى عمي فأخبره فأعطاني ما كان وعدني به[1].

وقد ظهرت شاعرية ابن دريد مبكرة، كما يقول في أول شعر قاله:

ثوب الشباب علَّى اليوم بهجته
فسوف تنزعه منّي يدُ الكبر
أنا ابن عشرين ما زادت ولا نقصت
إنَّ ابن عشرين من شيب على خطر[2]

وتعددت دراسات ابن دريد في اللغة والشعر والأدب، ولكن اللغة كانت هي الغالبة على ثقافته وإنتاجه، ويبدو هذا من مؤلفاته اللغوية والأدبية: أدب الكاتب. والاشتقاق، والأمالي، والأنباز، والأنوار، وكتاب البنين والبنات، وتقويم اللسان، والتوسط، وكتاب السلاح، والخيل الكبير، والخيل الصغير، وغريب القرآن، وفعلت وأفعلت، واللغات في القرآن، والمجتنى، والمقتبس، والمقتنى، والمقصور والممدود والملاحن، والوشاح والمطر والسحاب، والمتناهي في اللغة، وما سئل عنه لفظاً فأجاب عنه حفظا، وجمهرة اللغة موضوع هذا الحديث.

وقد عاش ابن دريد نحو قرن من الزمان تصدر فيه للعلم والإملاء نحو ستين سنة ترك فيها بجانب تراثه الأدبي واللغوي العظيم ثروة بشرية هائلة من تلاميذه الذين قادوا الحركة الفكرية طوال القرن الرابع الهجري، من أمثال أبي علي القالي وأبي علي الفارسي والسيرافي الأصفهاني والآمدي والمسعودي وابن خالويه والرماني والزجاجي والمرزباني والعسكري وغيرهم.

يقول أبو الطيب اللغوي في ترجمته لابن دريد[3]: هو الذي انتهى إليه علم لغة البصريين، وكان أحفظ الناس وأوسعهم علما وأقدرهم على شعر، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد.

واتفق المؤرخون على أن وفاته كانت ببغداد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وقد بقي حتى آخر رمق من حياته محتفظا بقوة ذاكرته على الرغم من إصابته بالفالج مرتين في أواخر أيامه. يقول أبو علي القالي: وكنت أسأله عن شكوكي في اللغة وهو بهذه الحال فيرد بأسرع من النفس

(١) معجم الأدباء جـ ١٨ ص ١٢٩ وما بعدها.
(٢) ديوان ابن دريد ص ٦٨.
(٣) مراتب اللغويين والنحويين ص ٨٤.

بالصواب، وقال لي مرة وقد سألته عن بيت شعر: لئن طفئت شحمتا عينيّ لم تجد من يَشفيك من العلم. وآخر شيء سألته عنه جاوبني بقوله: «يا بُنَيَ حالَ الجريضُ دون القريض».فكان هذا الكلام آخر ماسمعته منه(١).

الجمهرة: اتفقت جميع المراجع على تسمية هذا الكتاب «جمهرة اللغة» وقد يختصر إلى «الجمهرة»، وإن يكن هناك كتب أخرى تحمل صدر هذه التسمية. كجمهرة أنساب العرب وجمهرة أشعار العرب،إلا أن الجمهرة إذا أطلق عني به جمهرة ابن دريد كالكتاب لسيبويه، وذلك لأهمية الكتاب البالغة، وشهرته الفائقة.

وقد صرح ابن دريد في مقدمة الجمهرة وفي خاتمتها بسبب اختياره لهذه التسمية بقوله:

«هذا كتاب جمهرة الكلام واللغة ومعرفة جمل منها تؤدي الناظر فيها إلى معظمها. وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشيّ المستنكر...».

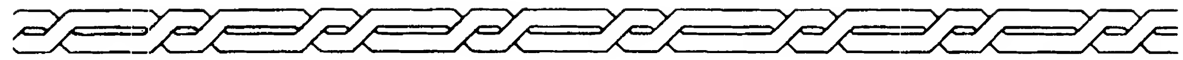
والجمهور بالضم الرملة المشرفة على ما حولها، ومن الناس جلهم، ومعظم كل شيء... وجمهره جمعه(٢).

وبذا تظهر دقة ابن دريد وأصالته في اختيار هذه التسمية لمعجمه الكبير. فهو لم يقلد الخليل ابن أحمد في تسمية معجمه «العين» ولم يطلق التسمية لتشمل جميع كلام العرب كصاحب لسان العرب وصاحب القاموس المحيط، فالإحاطة الكاملة بلسان العرب أمر ليس في مقدور البشر، وأقصى ما يستطيعه الإنسان هو الإحاطةبمعظم هذا اللسان وهذا ما حمل ابن دريد على اختيار هذه التسمية التي يبدو فيها التزام الصدق والدقة والتحرّي من أول كلمة في الكتاب ، فهو على حدِّ قوله: «اخترنا له الجمهور من كلام العرب»...

وقد كفانا ابن دريد همَّ البحث عن علة تأليفه لجمهرته حيث يقول في المقدمة: «إني لما رأيت زهد أهل هذا العصر في الأدب، وتثاقلهم عن الطلب، وعداوتهم لما يجهلون، وتضييعهم لما يعلمون، ورأيت أكرم مواهب الله لعبده سعة في الفهم، وسلطاناً يملك به نفسه، ولُبّاً يقمع به هواه، ورأيت ذا السِّنِّ من أهل دهرنا، لغلبة الغباوة عليه، وملكة الجهل لقياده، مُضيِّعاً لما استودعته الأيام، مقصِّراً في النظر فيما يجب عليه، حتى كأنه ابن يومه، ونتيج ساعته. ورأيت الناشىء المقتبل، ذا الكفاية والجِدَّة، مؤثراً للشهوات، صادفاً عن سبل الخيرات، حبوت العلم خزناً على مَعرفتي بفضل إذاعته، وجللته ستراً مع فرط بصيرتي بما في إظهاره من حسن الأحدوثة الباقية على الدهر. فعاشرت العقلاء كالمسترشد، وداجت الجُهال كالغبيِّ، نفاسةً بالعلم أن أبثّه في غير أهله، وأضعه بحيث لا يعرف كنه قدره. حتى تناهت بي الحال الى أبي العباس إسماعيل بن عبد الله بن محمد

(١) مقدمة الجمهرة ص ١٢.

(٢) القاموس المحيط جـ ١ ص ٣٩٣.



ابن ميكال ـ أيده الله بتوفيقه ـ فعاشرت منه شهابا ذاكيا، وسابقا مبرزاً، وحكيما متناهيا، وعالما متقنا، يستنبط الحكمة بتعظيم أهلها، ويرتبط العلم بتقريب حملته، ويستجر الأدب بالبحث عن مظانه، لم يطمح به خيلاء الملك، ولم تستفزه شرة الشباب، فبذلت له مصون ما أكننت، وأبديت مستورما أخفيت، وسمحت بما كنت به ضنينا، ومذلت ـ أي بحت ـ بما كنت عليه شحيحا، إذ رأيت لسوق العلم عنده نفاقا، ولأهله لديه مزية، وإنما يدخر النفيس في أحرز أماكنه، ويودع الزرع أخيل البقاع للنفع، فارتجلت الكتاب المنسوب الى جمهرة اللغة. . . »[1].

ومن هذا الجزء من مقدمة الجمهرة نستطيع ان نخرج بأمور:

أولاً: أن ابن دريد لم يكن راضيا عن معاصريه من أهل البصرة لتشاغلهم عن العلم، وتثاقلهم في طلبه، وعدم تقديرهم لأهله، مما حمله على أن يختزن علمه لنفسه دهراً، ويستره عنهم على كره منه زمناً، ويعيش بين العلماء مسترشداً، وبين الجهال متغابيا، حتى لقي أبا العباس بن ميكال.

ثانيا: أن أصول الجمهرة كانت تحت يده محفوظة في صدره ، أو مدونة في أوراقه، قبل استدعائه إلى فارس، وأنه ضَنَّ بها على أهل العراق في أول الامر، نفاسة بالعلم أن يبثه في غير أهله، ويضعه بحيث لا يعرف كنه قدره.

ثالثا: يبدو لي أن مما حمل ابن دريد على تأخير نشر الجمهرة بالعراق وجود جماعة من معاصريه ومنافسيه يفدون عليه ويتصيدون له المآخذ كنفطويه الذي يقول فيه:

ابن دريد بقره ... وفيه عيٌّ وشَرَهْ
ويدَّعي من جهله ... تأليفه للجمهره
وهو كتاب العين ... إلاّ أنه قد غيَّره

والأزهري الذي لم يسلم حتى الخليل من لسانه.

رابعاً: أن ابن دريد وجد في آل ميكال ضالته المنشودة لنشر علمه بينهم وهو أمر أجدى وأنفع من الناحيتين العامة والخاصة. فإذاعة الجمهرة في فارس خدمة كبرى للعربية وللعروبة وللإسلام جميعا، ونشرها في كنف آل ميكال ـ وهم في أوج عظمتهم وسلطانهم ـ فيه رواج للجمهرة وإعلاء لشأن صاحبها.

ونخلص من هذا بأن علة تأليف الجمهرة تنحصر في رغبة ابن دريد في جمع اللغة وحفظها وتيسيرها خدمة للعربية والعروبة بعامة، ولآل ميكال بخاصة.

ويظهر أن ابن دريد عند بدئه إخراج الجمهرة، كان لا يزال يحمل أثارة من ضيق، بهؤلاء الحسدة المكابرين من علماء العصر، فلم يفته أن يغمزهم بالإشارة إلى سوء صنيعهم، وإظهار سلامة نهجه في تقديم جمهرته بقوله:

---

(١) مقدمة الجمهرة ص ٤.

«ولم أجر في إنشاء هذا الكتاب على الازدراء بعلمائنا، ولا الطعن على أسلافنا، وأنَّى يكون ذلك؟ وإنما على مثالهم نحتذي، وبسبيلهم نقتدي، وعلى ما أصَّلوا نبتني».

»وقد ألف أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد- رضوان الله عليه- كتاب «العين» فأتعب من تصدَّى لغايته، وعنىً من سما إلى نهايته، فالمنصف بالغلب معترف، والمعاند متكلف، وكل من بعده له تبع، أقرَّ بذلك أم جحد، ولكنه - رحمه الله - ألف كتابه مشاكلا لثقوب فهمه، وذكاء فطنته، وحدة أذهان أهل دهره».

«وأملينا هذا الكتاب والنقص في الناس فاشٍ، والعجز لهم شامل، إلاَّ خصائص كدراريّ النجوم في أطراف الأفق، فسهَّلنا وعره، ووطأنا شأزه»[1]. -

ومع اعتراف ابن دريد لصاحب العين بفضل السبق، وإقراره بأنه وأمثاله للخليل تبع، وأنه على مثاله يحتذي، وبسبيله يقتدى، وعلى ما أصَّل يبتنى، إلاَّ أن الامر ليس كما يتصوره القارىء لهذه الكلمات، ولا كما صوَّره متصيد، فقال ما قال من هنات هينات مثل هذه الهنات الهينات، فإن الرجل في الحق يتخذ لنفسه نهجاً خاصا يخالف نهج الخليل في العين، ويبين للقارىء علة اختياره لهذا النهج بقوله:

«وأجريناه على تأليف الحروف المعجمة، إذ كانت بالقلوب أعبق [2] - أي ألزم، وفي نسخة أعنق، وفي أخرى أعلق- وفي الأسماع أنفذ، وكان علم العامة بها كعلم الخاصة، وطالبها من هذه الجهة بعيداً من الحيرة، مشفياً على المراد».

وباستقرار هذا الجزء من مقدمة الجمهرة أيضا نستطيع أن نخلص إلى نتائج توضح لنا بعض جوانب شخصية ابن دريد اللغوي في جمهرته أهمها:

أن الرجل يتمسك بخلق العلماء من أول وهلة، في تسمية الكتاب كما رأينا، وفي اعترافه بفضل الخليل، وفي نعيه على الجاحدين المكابرين. وهو بهذا كأنما يرد للخليل اعتباره، ويثبت للعين صحة نسبه كأصل للمعاجم العربية المتكاملة، وصحة نسبته الى صاحبه الخليل، وكانت هذه النسبة مثار جدل بين معاصريه.

وهو في تعريضه بمن جحد فضل العين أو فضل الخليل، كأنما يلمح إلى الأزهري ومن لفَّ لفَّه في مقدمته للتهذيب التي عاب فيها العين وعرَّض بالخليل، وشك في نسبة العين إليه، كما عرَّض بابن دريد ورماه بافتعال العربية.

كما يتضح لنا أن ابن دريد أصيل في تأليفه للجمهرة، يبتدع لمعجمه اسما يعبر في دقة وصدق ووضوح عن مضمونه، ويتخذ لنفسه نهجا يخالف نهج الخليل بتأليفه على حروف

---

(١) الشأز مهموز العين: الشديد الصلب، وأصله من الأرض: الغليظ الصعب.

(٢) أعبق أي ألزم، وفي نسخة: أعتنق، وأخرى أعلق.

الهجاء وفق ترتيبها المعهود في عصره بين جميع الناس، العام منهم والخاص، ليسهل على الناس الانتفاع به.

ومع اعترافه بفضل الخليل وكتابه «العين» فإنه يرى في العين صعوبة تتعب من تصدَّى لغايته، وتعنِّي من سما إلى نهايته، لأنه مشاكل لثقوب فهم صاحبه وذكاء فطنته، وحدة أذهان أهل عصره، فنهج هو نهجه الجديد، مخالفا نهج الخليل الذي أقام مواد كتابه على أساس صوتي، مبتدئا بحرف العين، فسائر حروف الحلق، ثم الحروف التي تليها في المخرج، فالتي تليها... إلى آخر المخارج وهي الشفة. فكان ابن دريد بحق صادق الحسّ، واضح القصد، في تيسير الخطة، وتعبيد النهج لطالب البحث.

[وقد وافقه في هذا أول من تصدى لإخراج العين في العصر الحديث الأب أنستاس الكرملي في بيانه عن أجزاء العين التي كان يزمع إخراجها حيث يقول:

«ويكون أغلب محتويات الجزء الخامس فوائد وتذييلات وفهارس، وذلك لأن هذا الكتاب ـ يقصد العين ـ مرتب ترتيبا على مخارج الحروف مبتدئا بالعين، وهو أول حرف يخرج من الإنسان من أقصى حلقه إذا أراد التلفظ بحروف الهجاء، وهذا الترتيب الفلسفي لا يفيد الباحث شيئا، إذ وقته ثمين، ويجب أن يعثر على ضالته بدون عناء عظيم، وبدون إضاعة وقت سدى. ولهذا استصنع فهارس للمواد، لتمكن الباحث من إرشاده إلى ضالته بسرعة، وذلك على النظام المألوف الميسور.. ـ مقدمة العين للدكتور عبد الله درويش، اقتباسا من مقالة الكرملي في مجلة لغة العرب، عدد آب (أغسطس) سنة ١٩١٤ ـ].

مصادر الجمهرة: سبق أن أشرت إلى أهم شيوخ ابن دريد الذين تلقى عنهم اللغة والشعر والأدب كأبي عثمان الأشنانداني وأبي حاتم السجستاني، وعبد الرحمن ابن اخي الأصمعي، وأبي الفضل الرياشي، وهؤلاء جميعا يروي عنهم في الجمهرة، ولكن مادة الجمهرة لا تقف عند ما أخذه ابن دريد عن هؤلاء، بل هو يعتمد كثيرا، بجانب هؤلاء، على كتب السابقين، وأكثر ما يعتمد على كتاب «العين» للخليل، وكتب الأصمعي وأبي زيد، وأبي عبيدة. ويبدو أن كل ما يرويه عن هؤلاء من غير سند موصول، أخذه ابن دريد من كتبهم التي كانت متداولة بين أيدي المهتمين بالعربية، والتي كانت تمثل المعاجم الجزئية في ذلك الحين. ومعروف أن ابن دريد كان شديد الاهتمام باقتناء كتب اللغة والأدب، وكان له جماعة من الوراقين يساعدونه في ذلك.

وابن دريد لا يأخذ اللغة أخذ الناقل الذي همه كله مجرد النقل، بل يأخذها أخذ الباحث المتبصِّر. قال في الجمهرة ـ ج ٣ ص ٤٣٥ ـ وأنشدنا الرياشي:

تركتَ سرجَك منقوضاً سُيورته
والسيف يصدأ طولَ الدهر مغمودِ
إذا سمعتَ بموت للبخيل فقل
بعداً وسحقاً له من هالك مودِ



قال أبو بكر: هكذا أنشدناه الرياشي، بكسر الدال، وهو إقواء، كأنه جرَّه على قرب الجوار، وأجاز الأصمعي ذلك، قال أبو حاتم: أنشدت البيت الذي فيه مغمود الأصمعي فقال: هذا مصنوع، وقد رأيت صانعه.

فهو يسمع البيت من شيخه الرياشي، فيحاول أن يجد له وجها من الصواب في الإعراب، ويحمله على محمل الجرِّ على الجوار، وكأنه سأل شيخه أبا حاتم عن صحة البيت، فعرف منه أنه هو الآخر قد سأل فيه الأصمعي فقال: إنه مصنوع.

وقد سأل ابن دريد شيخه أبا حاتم عن باع وأباع فقال: سألت الأصمعي عن هذا فقال: لايقال: أباع. فقلت: قول الشاعر الأجدع بن مالك الهمداني:

ورضيت آلاء الكميت فمن يَبِعْ
فرساً فليس جوادُنا بمباع

فقال: أي غير معرض للبيع. قال الأصمعي: لعلها لغة لهم. يعني أهل اليمن.

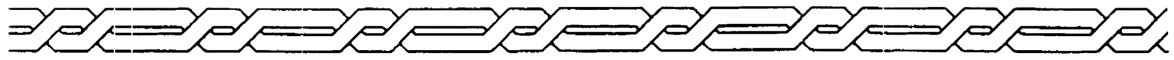
قال أبو بكر: وقد سمعت جماعة من جرم فصحاء يقولون: أبعت الشيء، فعلمت أنها لغة لهم. جمهرة جـ ٣ ص ٤٣٦ ـ.

وقد يشير ابن دريد إلى الكتاب الذي ينقل عنه كما في هذه الرواية: ـ جمهرة جـ ٣ ص ٤٥٥ «عن أبي عثمان الأشناندانى عن التوَّزى عن أبي عبيدة عن أبي الخطاب ـ أي الأخفش الاكبر ـ وهو في نوادر أبي مالك ـ قال: الشِّبر بين طرف الخنصر إلى طرف الإبهام، والفتر بين طرف الإبهام إلى طرف السبابة... الخ».

وفي خبر عن عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي ـ جمهرة جـ ٣ ص ٤٥٥ ـ يقول فيه: وسمعته ـ أي عبد الرحمن ـ يقول: أرض جِلْحِظاء، بالظاء معجمة، وبالحاء غير معجمة، وهي الصلبة التي لا شجر بها. وخالفه أصحابنا فقالوا: الجلخطاء، بالخاء المعجمة، وقالوا: هي الارض الصلبة، فسألته ـ أي عبد الرحمن ـ فقال: هكذا رأيته في كتاب عمي ـ أي الأصمعي ـ بخطه».

وهو ينقل الكثير من نوادر الأسماء والصفات والمصادر عن أبي عبيدة معمر بن المثنى والأصمعي وأبي زيد من غير سند ـ جمهرة جـ ٣ ص ٤٥٠ وما بعدها ـ ولا شك أن هذا كله منقول عن كتبهم، فهو كثيرا ما يردد: قال الأصمعي، قال أبو زيد، قال أبو عبيد... وهو لم يقابل أحداً منهم، وقد عدَّ السيوطيّ في المزهر ذلك من المرسل الذي انقطع سنده، ونقل رأي الكمال الأنباري في «لمع الأدلة» بأن ذلك غير مقبول، لأن العدالة شرط في قبول النقل، وانقطاع سند النقل يوجب الجهل بالعدالة ـ المزهر جـ ١ ص ١٢٥ ـ وأغلب الظن أن كل ما يرويه ابن دريد عن هؤلاء من غير سند هو منقول عن كتبهم، على ما رأيناه يصرح به أحيانا في بعض الأخبار.

أقسام الجمهرة وأبوابها: قسم ابن دريد جمهرته أقساما كبرى هي موضوعات الكتاب، تنطوي



تحتها أقسام صغرى هي الأبواب، تندرج تحتها أقسام أصغر هي المواد التي تتضمن جزئيات أصغر هي الألفاظ المأخوذة من التقاليب ومشتقاتها المستعمل منها والمهمل.

وعلى هذا يمكننا أن نحصر أقسام الكتاب الكبرى في الموضوعات الآتية:

الحروف الهجائية وخصائصها، ويسميها ابن دريد: الحروف المعجمة. وقد جعل الحديث عنها كمدخل للجمهرة، لأنها كما يقول:

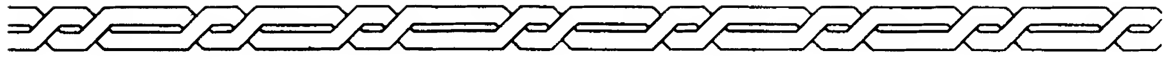
«هي أصل تفرع منها جميع كلام العرب، وعليها مدار تأليفه، وإليها مآل أبنيته، وبها معرفة متقاربه من متباينه، ومنقاده من جامحه». - مقدمة الجمهرة ص ٣-.

«فأول ما يحتاج اليه الناظر في هذا الكتاب ليحيط علمه بمبلغ عدد أبنيتهم المستعملة والمهملة أن يعرف الحروف المعجمة التي هي قطب الكلام ومحرنجمه - أي مجتمعه ومردّه. بمخارجها ومدارجها وتباعدها وتقاربها، وما يأتلف منها ومالا يأتلف، وعلة امتناع ما امتنع من الإئتلاف وإمكان ما أمكن. - مقدمة الجمهرة ص ٥-.

فبين ابن دريد في هذا القسم الحروف العربية وأجناسها وخواصها وما اختص به العرب والمشترك على قلة عند العجم، والمشترك بعامة بين الخلق كلهم من العرب والعجم، والحروف الأعجمية وموقف العرب منها، ثم يخصص بابا من هذا المدخل لصفة الحروف وأجناسها، يتحدث فيه عن مخارج الحروف، وأصواتها ومميزاتها من هذه الناحية، والمؤتلف منها وغير المؤتلف، وبابا لمعرفة الزوائد وموقعها، وبابا للأمثلة الثلاثية والرباعية والخماسية.

ثم يبدأ الكتاب بأبواب الثنائي الصحيح، فأبواب الثنائي الملحق بباب الرباعي المكرر، فباب الثنائي المعتل وما تشعب منه، فأبواب الثلاثي الصحيح وما تشعب منه، فباب ما كان عين الفعل منه أحد حروف العلة، فأبواب ما لحق بالثلاثي الصحيح بحرف من حروف اللين، فأبواب الهمزة، فباب النوادر في الهمزة، فباب اللفيف في الهمزة، فأبواب الرباعي الصحيح السالمة من حروف اللين، فباب الرباعي فيه حرفان مثلان، فأبواب من الضوابط اللغوية متناثرة، فأبواب من الغريب والنوادر متناثرة، فباب ما يلحق بالرباعي بحرف من حروف الزوائد، فأبواب الخماسي، فأبواب ما الحق بالخماسي، فأبواب اللفيف، فأبواب المعرب، فباب الاستعارات، فباب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة، فباب ما أجروه على الغلط فجاؤا به في أشعارهم، فباب ما وصفوا به الخيل، وباب ما وصفوا به الشاه، فباب ما زادوا في آخره الميم، فأبواب من الواحد والجمع، فباب المنقوص، فخاتمة في عدة أبنية الكلام، ونظام التقاليب. وقد بلغت عدة أبواب الجمهرة ثمانمائة واثني عشر بابا عدا المقدمة والخاتمة.

ونظرة في موضوعات الجمهرة وأبوابها ترينا إلى أي حدٍّ حاول ابن دريد تحقيق ما وعد به من



تضمين كتابه جمهرة كلام العرب، كما ترينا ما امتازت به الجمهرة بين كتب اللغة التي سبقتها - عدا العين- إذ كانت هذه الكتب تتناول موضوعات خاصة كالقريب والنادر ووصف الخيل والنبات والسحاب.. الخ، كما ترينا نهجه التعليمي بالإكثار من أبواب الضوابط اللغوية، واستخدام الاستعارة في التعبير، والمعرَّب والدخيل والغلط الجاري على ألسنة الشعراء.. الخ. فالجمهرة غنية بمواد اللغة التي تبلغ عشرات الآلاف، يحاول فيها ابن دريد تطبيق نظام التقاليب حتى يستوعب كل ما يستطيع استيعابه من كلام العرب.

وقبل أن أعرض لهذه المواد أرى من الأنسب ان أعرض لترتيب الحروف عند كل من الخليل وابن دريد، إذ أن بناء المواد وترتيبها عند كل منهما يرتبطان أساساً بترتيب حروف الهجاء.

وقد رتب الخليل حروف الهجاء على أساس صوتي، جاعلاً كل طائفة متجانسة المخرج في مجموعة على أساس مخرجها مبتدئا بحروف الحلق: (ع ح، هـ خ غ، ق ك، ج ش ض، ص س ز، ط د ت، ظ ث ذ، ر ل ن، ف ب م واي، همزة) - العين ج ١ ص ٥٣ - وعدتها تسعة وعشرون حرفا.

وقد نظمها بعضهم في أبيات:

يا سائلي عن حروف العين دونكها
في رتبة ضمها وزن وإحصاء
العين والحاء ثم الهاء والخا
ء والغين والقاف ثم الكاف أكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها
صاد وسين وزاي بعدها طاء
والدال والتاء ثم الظاء متصل
بالظاء ذال وثاء بعدها راء
واللام والنون ثم الفاء والبا
ء والميم والواو والمهموز والياء

وهي كذلك في العدد عن ابن دريد، ولكن ابن دريد أخذ بترتيبها المعهود بين الناس مبتدئا بالهمزة فالباء فالتاء فالثاء فالجيم فالحاء فالخاء - الخ منتهياً بالياء.

يقول في تقديمه للجمهرة: «فمن نظر في كتابنا هذا، فآثر التماس ثنائي فيبدأ بالهمزة والباء إن كان الثنائي باء ثقيلة، والهمزة والثاء، وهكذا إلى آخر الحروف....

«والحروف التي استعملها العرب في كلامهم في الاسماء والافعال والحركات والأصوات تسعة وعشرون حرفا، مرجعهم الى ثمانية وعشرين حرفا، لأن الألف الساكنة لا تعد حرفا مستقلا لكثرة قلبها ياءً أو واواً أو همزة، على ما يقول في موضع آخر من المقدمة:

«أما الحرف التاسع والعشرون فجرس بلا صوت- يريد أنه ساكن لا ينصرف في الإعراب- وهو الألف الساكنة، وذلك أنه لا يكون الا ساكنا أبدا، فمن أجل ذلك لم يبدأوا به، فإذا احتجت ان تحركه تحوله إلى لفظ أحد الحروف المعتلات (الياء والواو والهمزة) فمن ثم لم يُعَدَّ في الحروف المعجمة».

وعن الحروف التي اختص بها العرب، والتي اشتركوا فيها مع غيرهم يقول ابن دريد:

«من هذه الحروف حرفان مختص بهما العرب دون الخلق وهما: الحاء والظاء، وزعم آخرون أن الحاء في السريانية والعبرانية والحبشية كثيرة، وأن الظاء وحدها مقصورة على العرب».

«ومنها ستة أحرف للعرب ولقليل من العجم وهي: العين والصاد والضاد والقاف والطاء والتاء... وما سوى ذلك فللخلق كلهم من العرب والعجم، إلَّا الهمزة فإنها لم تأت من كلام العجم إلَّا في الابتداء».

«وهذه الحروف تزيد على هذا العدد إذا استعملت فيها حروف لا تتكلم بها العرب إلا ضرورة، فإذا اضطروا إليها حولوها عند التكلم بها إلى أقرب الحروف من مخارجها، فمن تلك الحروف الحرف الذي بين الباء والفاء مثل بور- بالباء الثقيلة- إذا اضطروا إليه قالوا: فور، ومثل الحرف الذي بين القاف والكاف والجيم والكاف».

وهذا البحث في اختصاص العرب ببعض الحروف واشتراكهم مع غيرهم في بعضها بحث جديد لم يسبق إليه ابن دريد ولم يتعرض له الخليل في معجمه «العين».

أبنية الكلام: وكلام العرف عند الخليل مبني على أربعة أصناف: الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي.. العين ص ٥٣.. «وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف، فمهما وجدت زيادة على خمسة أحرف في فعل أو أسم فاعلم أنها زائدة على البناء وليست من أصل الكلمة، مثل قرعبلانة أصلها قرعب من أقرعَبَّ الرجل إذا تقبض، ومثل عنكبوت إنما أصل بنائها عنكب...- العين ص ٥٥-

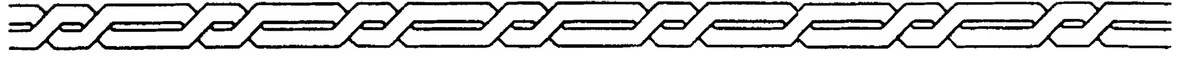
وأبنية الكلام عند ابن دريد أيضا هي نفس الأبنية عند الخليل إلَّا أن ابن دريد يفرد أبوابا للملحق بالثلاثي، والملحق بالرباعي، والملحق بالخماسي، ومن أبواب الثنائي عن الملحق ببناء الرباعي المكرر مثل: يثبت وثبت وبحج، الخ.

وهو يسمي البناء حرفا: «فمن نظر في كتابنا هذا فآثر التماس حرف ثنائي فليبدأ بالهمزة والباء إن كان الثاني باء ثقيلة- أي مضعَّفة- والهمزة والتاء... وهكذا إلى آخر الحروف.

وأما الثلاثي فإنا بدأنا بالسالم منه، فمن أحب أن يعرف حرفا من أبنية ما جاء على فعَل وفعِل وفعُل.. الخ فيبلغ ذلك وفي جمهور أبواب الثلاثي السالم، ومن أراد بناء يلحق بالثلاثي بحرف من حروف الزوائد فإنا أفردنا له بابا في آخر الثلاثي تقف عليه مع المعتل.

فأما الرباعي فإن أبوابه مجمهرة على حدتها نحو فعلَل مثل جعفر، وفُعْلُل مثل بُرْثُن.. ثم جعلنا للملحق بالرباعي بحروف الزوائد أبوابا مثل فوعَل نحو كوثَر، وفعْوَل نحو جَهْوَرَ....

وأما الخماسي فنُبَوِّبُ له أبوابا لم نحوج فيه إلى طلب لقرب تناولها، وكذلك الملحق بالسداسي بحرف من الزوائد.



«فإن عسر مطلب حرف من هذا فليطلب في اللفيف... وجعلنا النوادر في باب فسميناه النوادر لقلة ما جاء على وزن ألفاظها نحو: قَهَوْبَاةُ وطُوبالةُ وقرعبلانةُ وما أشبه ذلك..».

ـ مقدمة الجمهرة ص ٤ـ.

صفة الحروف وأجناسها: وقد توسع ابن دريد في باب صفة الحروف وأجناسها، وذكر أشياء لم يعرض لها الخليل ولا غيره من اللغويين السابقين. وخلاصة ما ذكره الخليل في هذا الصدد هو:

«في العربية تسعة وعشرون حرفا، منها خمسة وعشرون صحاحا لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية وهي الياء والواو والألف اللينة والهمزة فأما الهمزة فسميت حرفا هوائيا لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان أو الحلق أو اللهاة، إنما هي هاوية في الهواء، فلم يكن لها حيز تنسب اليه إلاّ الجوف.

فالعين والحاء والهاء والخاء والغين حلقية، لأن مبدأها من الحلق، والقاف والكاف لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة، والجيم والشين والضاد شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم، والصاد والسين والزاي أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرق اللسان، والطاء والتاء والدال نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى والظاء والذال والثاء لثوية لأن مبدأها من اللثة، والراء واللام والنون ذلقية لأن مبدأها من زلق اللسان، وهو تحديد طرفي ذلق اللسان، والفاء والباء والميم شفوية ـ وقال مرة شفهية ـ لأن مبدأها من الشفة، والياء والواو والألف والهمزة هوائية في حيز واحد». ـ العين جـ ١ ص ٦٤، ٦٥ـ. وكان الخليل يسمي الميم مطبقة لأنها تطبق الفم إذا نطق بها.

هذه خلاصة بحث الخليل في صفة الحروف وأجناسها في معجمه العين، أما ابن دريد فقد أفاض في هذا الجانب وأضاف الكثير الى قول الخليل. فالحروف عنده سبعة أجناس يجمعهن لقبان: المصمتة والمزدلقة. فالمزدلفة ستة أحرف، والمصمتة إثنان وعشرون حرفا، ثلاثة منها معتلات، وتسعة عشر حرفا صحاح ـ مقدمة الجمهرة ص ٦ ـ.

ويمضي ابن دريد في بيان مخرج كل من هذه الحروف ومدى تآلفها وتنافرها في حالة الجمع بين بعضها وبعض، ويأتي بالشواهد الناطقة من كلام العرب. فالحاء مثلا أقرب حرف يلي الهاء في المخرج: «ألا ترى أنها في كلام كثير من الناس مخلوطة بها حتى تصير الهاء حاء والحاء هاء كما في قول رؤبة: لله در الغانيات المدَّه... ويروي: المزَّه، أراد المزَّح، ومن روى المدَّه أراد المدَّح... ـ مقدمة الجمهرة ص ١١ـ.

وعرض لجنس حروف وسط اللسان وهي السين والزاي والصاد، وجنس حروف أدنى الفم كالتاء والطاء والدال، وأدنى منها أيضا مما هو شاخص إلى الغار الأعلى كالظاء والثاء والذال والضاد، ثم الحروف المذلقة. ثم عرض لما ذكره النحويون عن مخارج الحروف وأجناسها، وبين الفرق بين كلام النحويين

وكلام اللغويين:

«ذكر قوم من النحويين أن هذه الحروف التسعة والعشرين لها ستة عشر مجرى، للحلق منها ثلاثة، فأقصاها الهاء وهي أخت الهمزة والألف، والثاني: العين والحاء، والثالث: هو أدناها الى الفم الغين والخاء، فهذه ثلاثة مجار... ثم الفم واللهاة واللسان والخياشيم...» - مقدمة الجمهرة ص ٨ -.

ويختلف ابن دريد قليلا مع الخليل في مخارج الحروف كما رأينا، فعند الخليل: أقصى الحروف كلها العين ثم الحاء، ولولا بحة في الحاء لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين، ثم الهاء ولولا هتة في الهاء، - وقال مرة: هَهَّةٌ - لأشبهت الحاء، لقرب مخرج الهاء من الحاء. فهذه ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض، ثم الخاء والغين في حيز واحد، كلهن حلقية» - العين ج ١ ص ٦٤ -.

أما عند ابن دريد «فمن المصمتة الصحاح حروف الحلق وهي: الهمزة والهاء والحاء والعين والخاء والغين، فأخذهن من أقصى الحلق إلى أدناه، أما الهمزة منهن فمن مخرج أقصى الأصوات، والهاء تليها، وهي من موضع النفس، والحاء أرفع منها، وهي أقرب حرف يليها، ألا ترى أنها في كلام كثير من الناس مغلوطة بها حتى تصير الهاء حاء والحاء هاء...

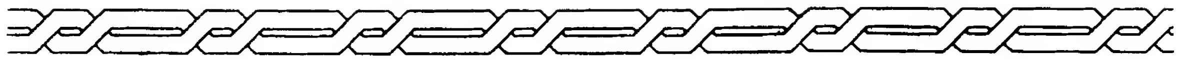
ومع أن الخليل رجل موسيقى ونغم، يبدو أن ابن دريد في ترتيبه الحلقي للحروف أقرب إلى طابع الأمور، وترتيبه هو الذي نجده في كتب المحدثين - فقه اللغة للأستاذ محمد المبارك ص ٣٢ وما بعدها -.

ثم يمضي ابن دريد في بحثه الصوتي الطريف: «وإنما خالف بين هذه الحروف المتقاربة حتى اختلفت أصواتها بين الهمس والجهر والشدة والرخاوة والمد واللين والإطباق... - مقدمة الجمهرة ص ٨ -.

وميز ابن دريد كل مجموعة من الحروف، ثم قال: «وإنما عرفتك المجاري لتعرف ما يأتلف منها مما لا يأتلف فإذا جاءتك كلمة مبنية من حروف لا تؤلف مثلها العرب عرفت موضع الدخل منها فرددتها غير هائب لها. واعلم ان الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت...». - مقدمة الجمهرة ص ٩ -.

وهكذا يمضي ابن دريد في بيان المستحسن والمستقل من تأليف الحروف ثم يخصص بابا لمعرفة الزوائد وأنواعها ومواضع زيادتها، وبابا للأمثلة التي أصّلها النحويون، واصطلح عليها أهل اللغة، وهي: ثلاثية ورباعية وخماسية... مقدمة الجمهرة ص ١٠، ١١.

أحسن **الأبنية**: وعند الخليل ان البناء الرباعي أكثره، لا يحوي من الحروف، الذلق، أو من بعضها إلاَّ كلمات نحواً من عشر كالعسجد والقسطوس والقداحس والدعشوقة والدهدعة والزهزقة... مقدمة العين ص ٥٩ -.



ولولا ما لزمهن من العين والقاف ما حسن على حال، ولكن العين والقاف لا تدخلان في بناء إلَّا حَسَّناه، لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا، فإذا اجتمعا أو احدهما في بناء حسن البناءُ لنصاعتهما... فمهما جاء من بناء اسم رباعي منبسط أي غير مضاعف- معرًّى من الحروف الذلق أو الشفوية، فإنه لا يعني من أحد حرفي الطلاقة أو كليهما، ومن السين والدال أو أحدهما....».

«والمضاعف في البيان ما كان حرفا عجزه مثل حرفي صدره، وذلك بناء يستحسنه العرب... ويجوز في الحكاية المضاعفة ما لا يجوز في غيرها من تأليف الحروف.»- مقدمة العين ص ٦٠ وما بعدها-.

وقد أخذ ابن دريد خلاصة كلام الخليل، واستخلص من ان «أحسن الأبنية عندهم ان يبنوا بامتزاج الحروف المتباعدة، الا ترى أنك لا تجد بناء رباعيا مصمت الحروف لا مزاج له من حروف الذلاقة إلَّا بناء يجعل بالسين وهو قليل جدا مثل: عسجد، وذلك ان السين لينة، وجرسها من جوهر الغنة، فلذلك جاءت في هذا البناء، فإن جاءك بناء يخالف ما رسمته لك مثل دَعشَق وعَقَجش وشعفج، فإنه ليس من كلام العرب فاردده، فإن قوما يتفعلون هذه الاسماء بالحروف المصمتة ولا يمزجونها بحروف الذلاقة، فلا يقبل ذلك...». - مقدمة الجمهرة ص ١١-.

«فأما الثلاثي من الاسماء والثنائي فقد يجوز بالحروف المصمتة بلا مزاج من حروف الذلاقة مثل خدع، وهو حسن لفصل ما بين الخاء والعين بالدال، وإن قُلِبت الحروف قبح، فعلى هذا القياس فألّف ما جاءك منه وتدبر.

واعلم ان أكثر الحروف استعمالا عند العرب الواو والياء والهمزة، أقل مايستعملون لثقلها على ألسنتهم الظاء ثم الذال ثم التاء ثم الشين ثم القاف ثم الخاء ثم الغين ثم النون ثم اللام ثم الراء ثم الباء ثم الميم...».

ويمضي ابن دريد في مقدمة جمهرته ليبين بأمثلة صنيع العرب في تأليف الألفاظ المستحسنة من الحروف المتباعدة المخارج، فاذا اضطروا الى خلاف ذلك أبدلوا.

وبعد أن أطال ابن دريد في بيان صفات الحروف وأجناسها توصل الى نتائج لغوية قيمة تقوم على أساس بحثه الصوتي الممتع الذي يتلخص في أن الحروف سبعة أجناس...

«وأما جنس حروف أقصى الفم من أسفل اللسان فهن: القاف والكاف ثم الجيم ثم الشين، فلذلك لم تأتلف الكاف والقاف في كلمة واحدة إلا بحواجز، ليس في كلامهم كق ولا قك، وكذلك حالهما مع الجيم، ليس في كلامهم جك ولا كج [ولا جق ولا قج]، إلا أنها قد دخلت على الشين لتفشي الشين وقربها من عكَدَة[1] اللسان، بل هي مجاوزة للعَكَدَة، الى الفم،

(١) العَكَدَةُ - بالتحريك - أصل اللسان (القاموس)

فقد جاء في كلامهم قش. . .. وقد جمعوا بين الشين والكاف وقالوا: شك في ا لأمر، وكشَّ البعير إذا هدر هديرا خفيفا، قال رؤ بة:

إني إذا خمشني تخميشُ
يوماً وجدّ الأمر ذو تكميشِ
هَدَرْتُ هَدْراً ليس بالكشِيشِ

وجمعوا بين الشين والجيم في الشَّجِّ والجش. . الخ

أبنية كلام العرب: ونسب إلى الخليل انه ذكر في كتاب العين« أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من غير تكرار: اثنا عشر ألف الف وثلاثمائة ألف وخمسة آلاف وأربعماية واثنا عشر».

وهو بلغة الأرقام (٤١٢، ٣٠٥ ، ١٢) ثم ذكروا له نديدا لعدد كل من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي على حدة. ونسبوا للزبيدي في مختصر كتاب العين تقديرا يخالف تقدير الخليل فعدة كلام العرب عنده، مستعملة ومهملة، ستة آلاف ألف وستمائة ألف وتسعة وخمسون ألفا وأربعمائة (٦,٦٥٩،٤٠٠)- عن المزهر للسيوطي جـ ١ ص ٧٤ - ٧٥ -

وهذه الأرقام لا تثبت أمام البحث العلمي الدقيق وهي مبنية على تقدير ظني يقوم على أساس نظام التقاليب الذي أشار اليه الخليل في العين، وتوسع في تطبيقه ابن دريد في جمهرته.

جاء في مقدمة كتاب العين: «قال الليث: قال الخليل: «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو: قدَّ، دَقَّ، شدّ، دشَّن، والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه وتسمى مسدوسة وهي نحو: ضرب، ضَبر، رضب، ربض - وترك بضر لإهمالها - .

والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصيرا أربعة وعشرين وجها، يكتب مستعملها لا مهملها وذلك نحو: عبقر؛ يقوم منه: عقرب، عبرق، عبقر،عرقب، عربق - ويهمل عقبر - ثم قعرب ، قعبر، قرعب. .الخ.

والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها وهي خمسة أحرف تضرب في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون وجها فتصير مائة وعشرين وجها، يستعمل أقله ويلغى أكثره وهي نحو: سفرجل، سفرلج، سفجرل، سجرلف. . . الخ.

وقد توسع ابن دريد في حساب أبنية كلام العرب على أساس أوضح وأقرب إلى الافهام. ويظهر أن تأخيره للحديث عن هذا الموضوع في ختام أبواب الجمهرة قد يمكنه من أن يحرز من التوفيق أكثر مما أحرز الخليل الذي جعل حديثه هذا ضمن تقديمه للعين. فقد كان صنيع ابن دريد بعد أن جمع جمهرة كلام العرب، وعانى تطبيق نظام التقاليب الذي فطن إليه الخليل وطبقه في معجمه، ولكنه لم يحدده هذا التحديد



الدقيق الذي صنعه ابن دريد إذ يقول في ختام الجمهرة:

«إذا أردت أن تؤلف بناء ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو خماسياً، فخذ من كل جنس من أجناس الحروف المتباعدة، ثم أدِرْ دائرة، فوقع ثلاثة أحرف حواليها، ثم فكها من عند كل حرف يمنة ويسرة، حتى تفك الأحرف الثلاثة فتخرج من الثلاثي ستة أبنية ثلاثية وتسعة أبنية ثنائية. وهذه الصورة:

ويرسم ابن دريد دائرة صغيرة عليها ثلاثة أحرف هكذا (ب ج د) فتكون أبنية الثلاثي الستة هي: ب ج د، ب د ج، ج ب د، ج د ب، د ب ج، د ج ب، وأبنية الثنائي التسعة هي: ب جَّ، ب دَّ، دبَّ، دجَّ، ج بَّ، ج دَّ، ب بَّ، ج جَّ، ددَّ.

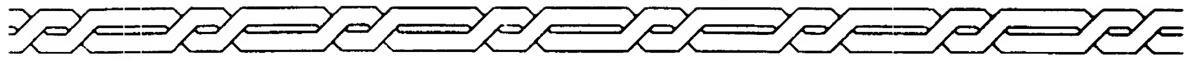
ويمضي ابن دريد فيقول: «فإذا فعلت ذلك استقصيت من كلام العرب ما تكلموا به وما رغبوا عنه، وأنا أفسر لك ما يرتفع من الأبنية الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية إن شاء الله تعالى بضرب من الحساب واضح، وبالله التوفيق....» ثم يفسره فعلاً على هذا الأساس.

رتب كلمة يمكن أن يوغل تحت مضمون وتمهيد موضوع الكتاب، ويتبين لنامنه ألى أي حدٍّ كان ابن دريد دقيقاً وأصيلاً في تأليف جمهرته، في اختيار الاسم، وفي ترتيب الحروف والمواد تبعاً لها، وفي بيانه عن اجناس الحروف وخواصها ومخارجها، وفي حسابه لأبنية العرب وميزاتها.

أقسام الجمهرة وأبوابها: قسم ابن دريد جمهرته أقساماً كبرى حسب عدد حروف الكلمة: الثنائي فالثلاثي فالرباعي فالخماسي فالملحقات.

وتحت كل قسم من هذه الأقسام موضوعات وفق حروف الهجاء، كل حرف من حروف المعجم رأس الموضوع، تحت كل موضوع أبواب يتناول فيها الحرف وما يليه من حروف المعجم، فيورد في كل باب المواد المستعملة والمهملة، أي جميع الألفاظ المستخلصة من تقاليب المادة التي يسميها أحياناً وجوهاً. وقد بدأ ابن دريد تقسيمه بباب الثنائي الصحيح.

الثنائي عند ابن دريد: يقول ابن دريد في أول هذا الباب- جمهرة جـ ١ ص ١٣- «والثنائي الصحيح لا يكون حرفين البتة إلا والثنائي ثقيل- أي مضعّف- حتى يصير ثلاثة أحرف، اللفظ ثنائي والمعنى ثلاثي، وإنما سمي ثنائياً للفظه وصورته، فإذا صرت الى المعنى والحقيقة كان الحرف الأول أحد الحروف المعجمة، والثاني حرفين مثلين أحدهما مدغم في الآخر نحو: بتَّ يبتّ بتاً في معنى قطع، وكان أصله: بتت فأدغموا التاء في التاء فقالوا: بتَّ، وأصل وزن الكلمة: فعل، وهو ثلاثة أحرف فلما مازجها الإدغام رجعت إلى حرفين في اللفظ... وكذلك كل ما أشبهها من الحروف المعجمة.



ثم يبدأ مواد الجمهرة- جـ ١ ص ١٣- بمادة:

(أ ب ب): (أبَّ) والأبُّ المرعى، قال الله عز وجل: «وفاكهةً وأبًّا»، وقال الشاعر:

جِذْمُنَا قيسٌ ونجدٌ دارنا
ولنا الأبُّ بها والمكرع

(والمكرع) الذي تكرع فيه الماشية مثل ماء السماء، يقال: كرع في الماء إذا غابت فيه أكارعه، كذلك نخل كوارع إذا كانت أصولها في الماء.

(وأبَّ أبًّا) للشيء إذا تهيأ له أو همَّ به. قال الأعشى يذكر قوما نزل فيهم فخانوه:

صَرمتمْ ولم أصرمكُمْ وكصارمٍ
أخٌ قد طوى كَشْحاً وأبَّ لِيذهبَا

(والأبُّ) النزوع إلى الوطن. قال هشام بن عقبة أخو ذي الرمة:

وأبَّ ذو المحضر البادي إبابته
وَقَوَّضَتْ نِيَّةُ أطنابَ تَخييم

- وفي لسان العرب جـ ١ ص ١٩٩: وأبَّ إلى وطنه يؤبُّ أبًّا وأبابة وإبابة: نزع، والمعروف عند ابن دريد الكسر. وذكر البيت-

(قال أبو بكر): وكان الذي يجب في هذه الأبنية أن نسوق معكوسها فنجعله بابا واحداً، فكرهنا التطويل، فجمعناه في باب الهمزة، وستراه إن شاء الله تعالى.

(وأما الأبُ) الوالد فناقص وليس من هذا. قالوا: أبٌ فلما ثنَّوا قالوا: أبوان، وكذلك أخ وأخوان أيضاً، وللناقص باب في آخر الكتاب مجمل مفسر ستقف عليه إن شاء الله.

(وأبَّ) الرجل إلى سيفه إذا ردَّ يده إليه ليستلَّه.

- جمهرة جـ ١ ص ١٤- ثم يمضي في بقية المواد المبتدأة بالهمزة مثل: أتَّ وأثَّ وأجَّ... الخ.

وبالنظر في هذه المادة نستطيع أن نلخص مقصد ابن دريد من الثنائي، فالثنائي عنده نوعان: صحيح، «وهو لا يكون حرفين البتة إلَّا والثاني ثقيل، حتى يصير ثلاثة أحرف».

فالثنائي على هذا هو مضعَّف الثلاثي عند النحاة والصرفيين، ويسميه: الثنائي الصحيح المدغم.

ومعتل، وهو ما تضمن بعض حروف العلة، وهو أيضاً لا يكون إلا ثلاثياً، وبدأه بمادة (بار يبور)- جمهرة ص ١٦٩- وختمه بمادة (وهى يهي)- جمهرة ص ١٩٢ وما بعدها-.

وقد خلط ابن دريد في باب الثنائي المعتل، وأشار إلى هذا الخلط محقق النسخة المطبوعة- هامش الجمهرة ص ١٦٩- فبدأه بحرف الباء مع حروف العلة (ب- اوى). وأول الباب:

(باء بإثمه) يبوء به بَوْءاً وَبَوَاءاً إذا رجع به.....

وآخر هذا الفصل: (و- اوى، هـ- اوى) أي حرف الواو مع حروف العلة، وحرف الهاء معها:



(وهى الشيء) يهي وَهْياً إذا ضعف، ووهى البناء مثله.

والهوءُ الهمة، قال الراجز: «لا عاجز الهَوْءِ ولا جَعْد القدم».

وفلان يَهُوءُ بنفسه إلى معالي الأمور أي يرفعها.

والهُوَّةُ من الأرض حفرة غامضة والجمع هُوىً.

وهوى النفس مقصور، وهواء الجو ممدود.....

وهذا كله، كما هو ظاهر، ليس من الثنائي في شيء وقد جاء به ابن دريد مرة أخرى تكراراً في آخر الثلاثي الصحيح- جمهرة جـ ٣ ص ٢٩٨- وجاء به ضمن ما لحق بالثلاثي الصحيح بحرف من حروف اللين- جمهرة جـ ٣ ص ٢٩٩-.

وقد اعتذر ابن دريد عن هذا التكرار في آخر باب الثلاثي:

«هذا آخر الثلاثي: سالمة ومعتلة وذي الزوائد فيه.

«وإنما أمللنا هذا الكتاب ارتجالاً، لا عن نسخة ولا تخليد في كتاب مثله. فمن نظر فيه فليخاصم نفسه بذلك فيعتذر إن كان فيه تقصير أو تكرير.

الثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر: ويفرد ابن دريد بابا للثنائي الملحق ببناء الرباعي المكرر في نهاية أبواب الثنائي مثل بأبأ، وبثبث، وبجبج الخ- جمهرة جـ ١ ص ١٢٤ وما بعدها- بينما يدخل الخليل هذه الأوزان ضمن الثنائي المضاعف فالتعتعة في مادة (تعَّ) والقعقعة في مادة (قعَّ).. وهكذا. ومع أن فصل ابن دريد لهذا القسم من الألفاظ يتمشى مع الواقع المستمد من طبيعة هذه الألفاظ، إذ هي رباعية في الواقع، وإنما جعلت ملحقة بالرباعي لتكرار حرفيها الأولين، فصنيع الخليل أكثر تمشياً مع نظام المعاجم، مما يسهل البحث، ويغني عن التكرار. وقد أنهى ابن دريد هذا القسم بهذه المواد: و أ و أ، هـ أ هـ أ، ي أ ي أ- فقال في الأخير منها (ي أ ي أ) أهملت إلاَّ في قولهم: يأيأت بالقوم إذا دعوتهم ليجتمعوا. وبعده أبواب الثلاثي فالرباعي فالخماسي صحيحها ومعتلها وذوي الزوائد فيها.

ومن هذا العرض السريع لبعض مواد الجمهرة نستطيع أن نخلص ببعض خصائص ابن دريد في جمهرته:

فهو مثلاً في ترتيب الحروف يقدم الواو دائمًا على الهاء، ويظهر أن هذا الترتيب هو الذي كان سائداً في عصره، وعندما يبدأ بحرف يؤلف مواده من هذا الحرف مع ما يليه دون الرجوع إلى ما سبقه، فيقول مثلاً في الثنائي الصحيح المدغم: حرف الذال وما بعده من الحروف: ويذكر من مواده: ذرر، ذ ش ش، ذ ع ع... الخ ثم حرف الراء وما بعده: رزز، ر س س، ر ش ش... الخ.

فإذا كانت المادة غير مستعملة أشار إلى ذلك،

كما في حرف الهاء وما بعده: (هـ ي ي) إذ يقول: أهملت إلا في قولهم: هيّ بـن بيّ كلمة تقال لمن لا يعرف، ومثله: هيَّان بن بَيَّان. . .

ويعتمد ابن دريد أكثر ما يعتمد في شواهده على الشعر والرجز والقرآن الكريم، فالحديث الشريف، فكلام العرب وحكمهم وأمثالهم. وعند الاستشهاد بالشعر قد يذكر الراوي والشاعر، وقد يذكر أحدهما وقد يهملها ويكتفي بقوله: قال الشاعر، وعندما يأتي بالشاهد من القرآن الكريم يقول في أغلب الأحوال: وفي التنزيل أو جاء في التنزيل، وفي الحديث قد يصرح بأنه من الحديث، وقد يقول: وفي الأثر. . .

وقد يذكر تقاليب المادة، وقد يهملها ويشير إلى علة ذلك، كما ذكر في آخر مادة: (أبَّ) قال أبو بكر: وكان الذي يجب في هذه الأبنية أن نسوق معكوسها فنجعله بابا واحداً، فكرهنا التطويل فجمعناه في باب الهمزة، وستراه إن شاء الله تعالى.

وقد اتُّهم ابن دريد من بعض معاصريه كالأزهري بعدم الدقة وتحري الصواب فيما ينقل من لغة، فقال في مقدمة كتابه: «تهذيب اللغة. . .»:

«وممن ألف في زماننا الكتب، فرمي بافتعال العربية، وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب في كلامها، أبو بكر بن دريد صاحب كتاب الجمهرة»- مقدمة تهذيب اللغة ص ٣١-.

وقد دفع السيوطي هذه التهمة في مزهره- المزهر جـ ١ ص ٥٨- والحق أن استقراء الجمهرة يدحض هذه الفرية، فما أكثر ما نجد من احتراسات ابن دريد وتوقفه إذا لم يهتد إلى الصواب، وما أكثر ما يعرض من تصويبات لأخطاء شائعة، فمثلاً في آخر حرف الرَّاء من الثلاثي يقول:

«والهِيرُ ريح الصبا وهي الإير.

«والهَيْرَةَ الأرض السهلة، لغة يمانية زعموا.

«وزعموا هريت اللحم هـريا في بعض اللغات، وليس بالمأخوذ بها.

«واليَهْرُ الموضع الواسع، واليَهْيَر الماء الكثير.

«واليَهْيَرَي قالوا: ضرب من النبت، وقال أبو مالك: هو الحجر الصغير. قال أبو بكر: هذا غلط لأن الحجر الصغير هو القهقرُّ. «وأنكر البصريون اليَهْير في الحجر. قال الشاعر النابغة الجعدي:

واخْضَـرَّ كـالقَهْقَـرِّ ينفض رأسـه
أمـام رِعـال الخيـل وهي تقـرِّبُ

«واليَهَيـرى من قولهم: ذهب فـلان في اليَهْيرَّى إذا ذهب في الباطل.«وقال بعض أهل اللغة: اليهيري الكذب»- جمهرة جـ ٢ ص ٤٢٣-.

وهكذا يذكر ابن دريد لفظ «زعموا» فيما لا يثق في روايته، ويقطع بالرأي فيما يطمئن إلى وجه التحري فيه، معززاً رأيه بالشاهد من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو الشعر أو الرجز أو كلام العرب. وهو يفرق بين الدلالات



مهما تكن دقة هذه الفروق، كما مرَّ في قوله: «واليهيري من قولهم: ذهب فلان في اليهيري إذا ذهب في الباطل.

قال بعض أهل اللغة: اليهيري الكذب. . .

وهي تفرقة تدل على الدقة في تقرير المعنى. وهو لا يأنف أن يقول: «لا أدري» إذا عرض له ما يوجب ذلك، كما فعل في مادة (النهّاء): القوارير، لا أعرف لها واحداً من لفظها. ـ جمهرة جـ ٣ ص ٢٦٨ـ وفي مادة (حلتب): اسم يوصف به البخيل، ولا أدري مم اشتقاقه؟ـ جمهرة جـ ٣ ص ٢٩٥ـ وفي مادة (الشفْز): الرفس بصدر القدم: شفزَه يَشفزهُ شفْزاً. يزعمون ذلك، وليس هو عندي بعربي صحيح». ـ نفس المصدر السابق ص ٢ـ.

وقد يذكر الوجه وهو غير متثبت من صحته، فلا يفوته أن يشير إلى ذلك، كما في (الزَّلْط) في بعض اللغات المشي السريع. ثم قال: وليس يثبت. ـ جمهرة جـ ٣ ص ٥ـ.

هذا، ولم يلتزم ابن دريد بما أشار إليه في تقديمه من ترك الوحشي والمستنكر، ولكنه لا يفوته أيضاً أن يشير إلى ذلك، كما فعل في مادة (العَضْز): في بعض اللغات المضغ: عضز يعضز عضزاً. يقول: ولم يعرفها البصريون، وهو بناء مستنكر ـ جمهرة جـ ٣ ص ٣ـ.

وهو يناقش أهل اللغة، ويقف موقف الحذر إذا عرض له خلاف مع الخليل، كما فعل في باب ما جاء على فِعْيَل: حِذْيَم من الحذم وهو سرعة القطع أو الكلام.

وهِمْيَع موت سريع وحيّ. قال أبو بكر: قال أصحابنا: بالغين المعجمة، وأنشدوا للهذلي المتنخل:

إذا وَردوا مِصْرَ هم عُوجِلُوا
من الموت بالهِمْيغ الذَّاعط

وذكر الخليل بالعين غير المعجمة فقال: هِمْيَع موت سريع وحيٌّ ـ جمهرة جـ ٣ ص ٣٥٣، والذاعط السريع ـ القاموس المحيط (ذاعط)ـ.

وقد يسأل ابن دريد عن اللفظ الشيخ بعد الشيخ، والمرة بعد المرة، كما في مادة (جيْأل): اسم من أسماء الضبع، قال الشاعر:

وجاءت جَيْئَلُ وأبو بنيها
أجَمّ المأقيين بها خُماع

قال: وسألت أبا حاتم عن اشتقاقه فقال: لا أعرفه. وسألت أبا عثمان ـ أي الأشنانداني شيخه ـ فقال: إن لم يكن من جألت الصوف والشعر إذا جمعتها، فلا أدري ـ جمهرة جـ ٣ ص ٣٥٥، وفي القاموس المحيط مادة (جأل) كمنع: ذهب وجاء، والصوف جمعه واجتمع لازم ومتعد، وكفرح. . . والجيأل الضبع. . . وأجمّ كثير اللحم، ومقا الفصيل أمه رضعها، والخماع العرج.

وقد يتوقف عن القطع برأي إذا ساوره الشك، ولم يهتد للصواب، كما فعل في باب ما جاء على (فِعْلِلاء) قال:

يقال: طِرْمِساء وهي الغبرة والظلمة، وطلْمِساء مثله، وجِلحظاء مثله، وهي أرض لا



شجر فيها.

قال أبو بكر: وأنا أوجل من هذا الحرف، لأني سمعت عبد الرحمن ابن أخي الأصمعي يقول: جلْخِظاء بالخاء والظاء، وقال: هكذا رأيته في كتاب عمي- أي الأصمعي- فخفت أن لا يكون سمعه- أي من عمه- وقال سيبويه في كتابه: جِلْخِطاء بالجيم والخاء والطاء، فلا أدري ما أقول فيه»- جمهرة جـ ٣ ص ٤١٢

محتويات الجمهرة: لم يقف ابن دريد في جمهرته عند جمع مواد اللغة وتنسيقها تحت أقسام كبرى من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي وملحقاتها، فدرج تحتها أبواباً من الصحيح والمعتل والملحقات والغريب والنوادر مما يدخل ضمن مواد اللغة، كما يفعل غيره من أصحاب المعاجم، بل إن ابن دريد يميز جمهرته عن جميع المعاجم المألوفة بإيضافات وزيادات تجعل منها معرضاً أو موسوعة لغوية.

فهو في ثنايا الجمهرة، أو بعد أن ينتهي من الأبواب الرئيسية يمضي في ذكر ألوان من الضوابط اللغوية المتنوعة مثل:

«باب ما اتفق عليه أبو زيد وأبو عبيدة وكان الأصمعي يشدد فيه ولا يجيز أكثره مما تكلمت به العرب من فعلت وأفعلت...

«وباب ما جاء على لفظ الجمع ولا واحد له...

«وباب ما تكلموا به مصغراً...

«وباب حواليك ودواليك...

«وباب ما جاء في صفات الطويل...

«وباب ما تدخله الهاء- تاء التأنيث- من المؤنث: جارية كاعب وناهد ومعصر...

وأبواب من الغريب والنوادر في المصادر وغير المصادر ونوادر الهمز واللفيف والغريب من الأوصاف وأبواب الحروف التي يقوم بعضها مقام بعض...

«وباب ما يتكلم به بالصفة وتلقى منه الصفة فيفضي الفعل إلى الاسم...

«وباب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة...

«وما تكلموا به وأعرب...

«وما أخذ من النبطية والسريانية والفارسية والرومية...

«وباب ما أجروه على الغلط فجاءوا به في أشعارهم...

«وما حرفوا فيه الاسم عن جهته...

«وباب ما يستعار فيتكلم به في غير موضعه...

وفضلاً عن هذه الأبواب التي تميزت بها الجمهرة، نلحظ في ثنايا الجمهرة بعض الاستنتاجات اللغوية العميقة كإدراك ابن دريد للعلاقة بين أصوات الألفاظ ومعانيها، حيث يقول في بعض أبواب الجمهرة:

«الخَنن في الكلام أشد من الـغنّ، والخنّة



أشد من الغنة، والأنيب أشد من الأنين، والرنين أشد من الحنين. . .

«والجرجرة بالجيم صوت جرع الماء في جوف الشارب، والخرخرة بالخاء صوت تردد النفس في الصدر، وصوت جرى الماء في مضيق، والدردرة حكاية صوت الماء في بطون الأودية وغيرها. . .

وهكذا نجد ابن دريد يفطن الى كثير من خصائص اللغة في ثنايا جمهرته، على نحو يميل بنا إلى القول بأنه المصدر الأول لتلميذه أبي علي الفارسي الذي كان يأنس بهذا اللون من الخصائص في بعض المواقف، ثم جاء تلميذه ابن جني فتوسع فيه، وحاول أن يجعل منه قواعد مطردة على أساس تقاليب الكلمة في كتابه «الخصائص» وإن لم يسلم له ذلك الاطراد في جميع الأحوال.

وبعد هذه الطوفة السريعة بين جوانب الجمهرة، أستطيع أن ألخص محتوياتها في نقاط موجزة:

١ـ مقدمة وافية، حدثنا فيها ابن دريد عن جمهرته وعلة تأليفهاوطريقة هذا التأليف، وكيفية البحث فيها، وعن الحروف ومخارجها وأجناسها وخصائصها وأثر عذا كله في تركيب الألفاظ واستعمالها. . .

٢ـ خاتمة ضافية أيضاً في تأليف الأبنية على أساس نظام التقاليب، وطريقة استقصاء عدة كلام العرب. . .

٣ـ تقسيم الجمهرة على أساس الأبنية الثنائية فالثلاثية فالرباعية فالخماسية فملحقاتها، ثم الزوائد، ثم النوادر والغريب. . .

٤ـ أبواب عن الضوابط اللغوية. . .

٥ـ أبواب متناثرة لما تكلمت به العرب من كلام العجم. . .

٦ـ أبواب لما يستعار فيتكلم به في غير موضعه. . .

٧ـ أبواب من التعبيرات الخاصة والمعارف اللغوية العامة كأسماء القداح قداح الميسر، وأسماء الأيام والشهور في الجاهلية. . .

وعلى الجملة يمكن أن نعد الجمهرة في القمة بين بواكير المعاجم العربية، فهي موسوعة جامعة لألوان الثقافة اللغوية السائدة في عصر ابن دريد، فوق أنها أول معجم لغوي كامل وفق ترتيب حروف الهجاء المعهود، على أساس نظام التقاليب الذي ابتكره الخليل، وتوسع في توضيحه وتطبيقه ابن دريد في جمهرته.

د. محمد كامل بركات

